كيف يكتب التاريخ

للدكتور حسن عثمان

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

— ٣ —

أول مسألة تواجه المبتدئ في دراسة التاريخ هي مسألة اختيار موضوع البحث ؛ والمسألة تختلف بالنسبة للطالب الذي يبدأ دراسته الجامعية عنها بالنسبة للباحث الذي أنهى مرحلة التعليم المدرسي وبدأ يتطلع إلى الدراسة العلمية المنتجة . فالطالب المبتدئ في التعليم الجامعي لا ينتظر منه عادة أن يقوم ببحث أصلي ، أو أن يكشف عن مجموعة وثائق لم تكن معروفة من قبل ، أو أن يستخلص حقائق تاريخية مجهولة ؛ وإنما المطلوب منه أن يتوفر على تحصيل وسائل الإعداد والتدريب الذي يؤهله للعمل العلمي في المستقبل . فالطالب أثناء الدراسة الجامعية يختار — بإرشاد المدرس — بعض الموضوعات المدروسة ، لا لكي يبحثها من جديد وإنما للتمرين والتدريب والاقتباس ؛ وهو في هذا يشبه دارس الكيمياء أو الطبيعة الذي يقوم بعمل التجارب التي ثبت صحتها نهائياً لكي يتدرب ويعرف ما عمله غيره من قبل . فطالب التاريخ يستطيع أن يختار موضوعات متنوعة في الفروع التي يدرسها . ويمكنه أن يبحث بعض الموضوعات العامة ، كأن يختار مثلاً كتابة ملخص عام عن تاريخ نابليون في حيز محدود . ويعتمد على القليل من المراجع الأساسية عن الموضوع التي يأخذها من المدرس أو التي يستخرجها بنفسه من كتب المراجع . فيقتبس ويدون مذكرات من هذه المراجع . وينبغي أن يلاحظ وضع أرقام الصفحات لكي يمكنه الرجوع إلى بعض النقط عند الضرورة ؛ ثم يقارن ويمزج بين المعلومات التي جمعها ، ثم يعرض بإيجاز نشأة نابليون وتعليمه وشخصيته وتدرجه في المناصب ، وحروبه في الشرق وفي أوربا ، وحكومته وإدارته ، وظروف أوربا في عهده ، ووقوف انجلترا في سبيله ، ثم سقوطه وحياته في المنفى . ويعطى الطالب ملخصاً وافياً لكل هذه النواحي . وهو في هذه الحالة سيتجاوز عن الكثير من التفصيلات والحركات المحلية . وسيكتفي بالمسائل المهمة البارزة فقط ، سواء أكانت حوادث الحروب أم مشاكل السياسة الداخلية أو الخارجية . وبعد ذلك يختار الطالب جزءاً من الموضوع العام الذي ألم به مثل موضوع حملة نابليون على الروسيا في سنة ١٨١٢ ، فيبحث الظروف التي أدت إلى تلك الحملة ، ويتبع سيرها والحركات الحربية التي وقعت ، ووصول نابليون إلى موسكو ، ثم ارتداده وفشله ، وما ترتب على ذلك من الآثار في فرنسا وفي أوربا . وهو في هذا سيبحث موضوعاً أكثر تحديداً من الموضوع السابق ، وإلمامه بتاريخ نابليون العام سيساعده على فهم الحملة الروسية . ثم يتدرج إلى بحث نقطة تاريخية محددة بالذات مثل معركة واترلو ، فيدرس في بعض المراجع العامة الظروف التي أدت إلى هذه المعركة ويوازن بين القوى الحربية لكل من فرنسا وانجلترا وبروسيا ، ثم يدرس خطط المعركة ، ويتبع العمليات الحربية ، ويوضح كيف هزم نابليون ؛ ثم يشرح النتائج التي ترتبت على ذلك . ويمكن للطالب

يا من يؤبن سعداً ، من تؤبنه
هو الهدى والندى والبأس والشمم
هيهات توصف بالوصف الخليق بها
تلك الفضائل والآداب والشيم
ما القول في دوحة فينانة سقطت
ومن أماليدها الإحسان والكرم
كأنها غيضة مجموعة نشبت فيها المنايا تنشيها وتختزم
لكنني أستعين الله معتذراً عن القصور وبعض العجز لا يعم

ومع هذا الاعتذار الطريف فقد أبدع مطران في رثاء سعد كل الإبداع

أما بعد . فقد رأى القراء أن الشعراء الذين تحدثنا عنهم قد التقوا في كثير من المعاني ، وكان من الممكن أن نعقد الموازنات فنعرف كيف سبق هذا أو تخلف ذاك ، كأن نشرح ما قالوا في وصف خطابة سعد ، وكأن ننظر كيف صوروه في المحاماة والقضاء ثم نوازن بين هذه القصائد الجياد ؟

ومتى نبين المعاني التي انفرد بها بعض أصحاب هذه القصائد ؟

زكي مبارك

أن يطبق هذه الطريقة فى نواح مختلفة من التاريخ . وهذا التدريج نافع جداً لأنه سيجعله يدرك فائدة الإلمام بتاريخ العصر أو الموضوع العام ؛ وأثر ذلك واضح فى فهم النواحى الخاصة ، وفى التنقل فى بحث الموضوعات الجزئية . وسيعلمه هذا التدرج ضرورة الاهتمام بالجزئيات المعينة مع عدم إغفال الروح العام والنظرة العامة عن العصر الذى يبحث فيه . فلا بد من العناية بهاتين الناحيتين معاً على اتساق وتوافق . ثم يدرس الطالب بعض الوثائق الأصلية المطبوعة لبحث موضوع معين ؛ كما يدرس بإرشاد الأستاذ طائفة مختارة من الوثائق المخطوطة ، ويستخرج منها بعض الحقائق اللازمة لبحث نقطة معينة . وهذا كله كتدريب وإعداد للمستقبل . وما ينطبق على الطالب فى الجامعة ينطبق على أى شخص لم تتح له فرصة التعليم الجامعى فى بلد كمصر ويشعر فى نفسه بالميل إلى دراسة التاريخ وبحثه

وعند ما يتم الطالب مرحلة التعليم العالى ويحصل على درجة جامعية ، ويرغب فى متابعة البحث التاريخى ، فإن اختيار موضوع البحث يبدو بشكل مخالف . فهو فى هذه الحالة لا يستطيع أن يبحث أى موضوع كان ؛ لأن المطلوب أن يقوم ببحث أصلى Original ، ويكشف عن حقائق تاريخية جديدة ؛ فلا يكون البحث بناء على الرغبة فقط ، وإنما يكون بناء على ما يجب أن يبحث ، أو ما الذى يمكن أن يبحث . والباحث المبتدئ قد يثير اهتمامه أثناء دراسته بعض المسائل فى تاريخ اليونان القديم أو فى تاريخ العصور الوسطى أو فى تاريخ الروسيا مثلاً . فللمضى فى بحث إحدى هذه النواحى ينبغى أولاً أن يعرف العلوم المساعدة الرئيسية المرتبطة بالفرع الذى يرغب دراسته . وإذا لم يكن يعرفها فينبغى أن يقرر بصراحة من أول الأمر : هل هو مستعد لأن يتعلمها أم لا ؟ هل هو مستعد لأن يتعلم اللغة اليونانية القديمة أو لاتينية العصور الوسطى أو اللغة الروسية مثلاً ؟ وهل هو مستعد لأن يتقن ما يتصل بهذه اللغات من العلوم المساعدة الضرورية مثل علم النقوش ، وعلم قراءة الخطوط ... فإذا لم يكن مستعداً لذلك فينبغى عليه أن يعدل عن المضى فى بحث إحدى هذه النواحى التى تعوزه فيها الوسائل الضرورية ، ويمكنه أن ينتقل إلى مجال بحث آخر يعرف أصوله وقواعده

والمبتدئ فى البحث التاريخى طبقاً للطرق العلمية الحديثة ، ينبغى أن يراعى بعض الأمور . فيجب أن يختار ناحية أو نقطة محددة لكى يستطيع أن يتفرغ لدراستها وإخراج جديد عنها ؛ وتكون هذه النقطة جزءاً من موضوع عام لكى يتسع المجال أمام الباحث لمتابعة دراساته فى المستقبل . فمثلاً لا يصح للباحث أن يتخذ تاريخ الدولة الأيوبية بأكمله موضوعاً للبحث ، لأنه موضوع طويل . فالأيوبيون قد حكموا مصر من سنة ١١٦٩ إلى ١٢٥٠ م . ودراسة هذه الفترة دراسة عميقة مع كشف حقائق جديدة عنها لا يمكن تحقيقها فى سنوات قلائل . وإذا أصر الباحث على القيام بهذه الدراسة ، فإنه لن يأتى بأكثر من تلخيص ما هو موجود فى المراجع المعروفة . أما إذا خصص وقته وجهده فى نفس هذه السنوات القلائل لبحث ناحية معينة بالذات ، مثل تاريخ صلاح الدين أو تاريخ الملك العادل أو تاريخ التجارة فى عهد الدولة الأيوبية ، فإنه يستطيع أن يسبر غور الأرض المجهولة ويكشف عن حقائق تاريخية جديدة . وبديهى أن الوقت والجهد اللذين يخصصان لفترة قصيرة يأتيان بنتائج علمية أعمق مما لو خصصا لفترة طويلة . ووضع مؤلف علمى دقيق عن عصر الدولة الأيوبية بأكمله لا يمكن أن يتم إلا بعد دراسة جزئيات هذا العصر وبعد كشف كل الحقائق التى يمكن الوصول إليها . وما يقال عن عصر الدولة الأيوبية ينطبق تماماً على أى عصر آخر . وكذلك ينبغى أن يلاحظ الباحث عند التفكير فى اختيار موضوع البحث ميله واستعداده ، سواء للناحية الحربية أو السياسية أو الاقتصادية أو الدينية أو الفنية . ولا داعى لأن يقسر الباحث نفسه على ولوج ميدان لا يميل إليه ؛ وعلى العكس فإن طرق الميدان الذى يميل إليه يجعله أقدر على العمل وأقوى على كشف الحقائق . والمرحلة الأخيرة التى ينبغى أن يمر خلالها الباحث قبل أن يختار نهائياً موضوع البحث من الناحية العملية تتلخص فيما يلى :

هل الموضوع الذى فكر فيه يحتاج إلى أن يبحث ؟ ألم يكن قد بحث من قبل مطلقاً ؟ أو هل بحث بطريقة غير كافية

وهل المادة الأصلية الموجودة عنه لم تدرس ولم تنقد كما ينبغي ؟ أو هل قد وجدت أو يمكن أن توجد مادة أصلية جديدة تبرر إعادة بحث الموضوع من جديد ؟ فإذا توفرت بعض هذه الشروط فمعنى ذلك أن الموضوع يحتاج إلى الدرس والبحث . ولكن كيف يمكن للباحث أن يثبت توفر بعض هذه الشروط ؟ الطريقة العاجلة هي أن يبادر باستشارة أحد الإخصائيين في ميدان البحث التاريخي المعين ، سواء في البلد الذي يعيش فيه أو في أي بلد آخر بواسطة المراسلات . وإذا تعذر الوصول إلى ذلك الإخصائي فعلى الباحث أن يجيب على هذه الأسئلة بنفسه . فلكي يعرف الباحث المراجع العامة والخاصة التي ظهرت عن العصر المعين ، وهل اعتمدت على كل الأصول المعروفة فإنه يلزمه الاسترشاد بفن البيليوغرافيا . والتأكد من أن الأصول التاريخية الموجودة قد نقدت واستخدمت بطريقة علمية صحيحة يدخل في باب نقد الأصول والمصادر ؛ ومسألة وجود مادة أصلية جديدة عن الموضوع تعرف عن طريق البحث والعمل في دور الأرشيف مثلاً . وسوف نعرف أشياء عامة عن هذه النواحي في هذه المقالات . وإذا لم تتوفر بعض هذه الشرط السالفة فلا معنى مطلقاً للاستمرار في البحث بدون جدوى عن ذلك الموضوع . ولا بد إذاً من العدول عنه إلى موضوع آخر يمكن الإتيان في بحثه بجديد

وما هي الأعمال العلمية والأبحاث التي ينبغي أن تعمل في مصر ؟ نحن فقراء ومتأخرون جداً في ميدان البحث التاريخي بالمعنى العلمي الحديث . والغرب قد سبقنا بمراحل هائلة جداً في كل أدواره مثل طبع الفهارس ووضع البيليوغرافيات المتعددة الأنواع ، وجمع الأصول ، ونشر بعضها في مجموعات ضخمة ، ووضع المؤلفات التي لا حصر لها عن مختلف أنواع التاريخ في جميع عصوره عن تاريخ العالم كله ، وعن تاريخ كل من الدول والشعوب على حدة ، سواء في ذلك المراجع التي تتناول التاريخ العام ، أو المراجع التي تبحث عصوراً معينة ونواحي خاصة في تاريخ كل من هذه الدول والشعوب . فأين نحن من كل هذا ؟ ؟ صحيح أن بعض الباحثين من المصريين قد وضعوا أبحاثاً عن بعض مسائل التاريخ المصري وغير المصري نتيجة جهود فردية[1] ولكنها قليلة جداً ؛ ونحن عالة على علماء الغرب الذين درسوا نواحي متعددة من التاريخ المصري في عصوره المختلفة . ولكن هذه الدراسات المتعلقة بمصر سواء من جانب المصريين أو الأجانب لا تكفي مطلقاً . وقبل أن نفكر في اختيار موضوعات للبحث في تاريخ مصر ينبغي أن نقوم بأعمال تمهيدية واسعة النطاق وأساسية جداً ، لكي يسير العمل سيراً منتظماً وفعّالاً . وأول هذه الأعمال التمهيدية القيام بطبع كتالوجات وفهارس لدور الكتب ودور الأرشيف في مصر بالطرق العلمية الحديثة — أي بتبويبها وتقسيمها ووضع الفهارس لها — مما هو غير متوفر تماماً في الموجود منها حالياً ، فضلاً عن غير الموجود أصلاً . ثم وضع

(١) من بين المؤلفات التي وضعها الباحثون المصريون نجد :

١ — الأمير عمر طوسون : مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن . الأسكندرية ، ١٩٣١

٢ — الأمير عمر طوسون : الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم . الأسكندرية ، ١٩٣٦

٣ — الأمير عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء ؛ ٣ أجزاء . القاهرة ، ١٩٣٧ ... الخ

٤ — حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر . القاهرة ، ١٩٣٢

٥ — « « « : تاريخ الاسلام السياسي ؛ ج ١ . القاهرة ١٩٣٥

٦ — أحمد أحمد الحتة : الفلاح المصري في عهد محمد علي . القاهرة ، ١٩٣٤ (لم يطبع بعد)

٧ — أبو الفتوح رضوان : تاريخ المطبعة الأميرية . القاهرة ، ١٩٣٦ (لم يطبع بعد)

٨ — عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي . القاهرة ، ١٩٣٨

٩ — عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عهود عباس وسعيد واسماعيل . القاهرة ، ١٩٤١ . (لم يطبع بعد)

١٠ — Chafik Ghorbal : The Beginnings of the Egyptian Question & the Rise of Mehmet Ali. London, 1928

١١ — M. Sabry : L'Empire Egyptien sous Muhammed Aly. Paris, 1930

١٢ — M. Sabry : L'Empire Egyptien sous Ismail. Paris, 1933

١٣ — M. F. Shukry : The Khedive Ismail & Slavery in the Sudan. Cairo, 1938

١٤ — Zaki M. Hassan : Les Tulunides. Paris, 1933

١٥ — A. S. Atiya : The Crusade of nicopolis. London, 1934

١٦ — « « : The Crusade in the Later Middle Ages. London, 1938

١٧ — Ibr. Noshy : The Arts in Ptolemaic Egypt. London, 1937

١٨ — H. Osman : Fakhr Ad-Din II., Emiro del Libano e le sue Relazioni con l'Occidente, con Documenti inediti. (V. I: : 1572-1618). Roma, 1938. (لم يطبع بعد)

فهارس وقوائم للكتب والمخطوطات التي تناولت تاريخ مصر في العصور المختلفة ؛ ثم جمع المخطوطات التاريخية ونشر بعضها نشراً علمياً حديثاً . وصحيح أن بعض الأفراد وبعض الهيئات مثل : المطبعة الأميرية ، ودار الكتب المصرية ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر، تقوم بنشر بعض الأصول التاريخية[1] . ولكن لم تنشر أغلبها النشر العلمي الواجب خلوها من الفهارس مثلاً . ولقد عنى المغفور له الملك فؤاد الأول بجمع الكثير من الوثائق المتعلقة بتاريخ مصر في القرن التاسع عشر من محفوظات مصر ومن بعض دور الأرشيف في أوربا وأمريكا ، وقد حُفظت في أرشيف عابدين ؛ كما عنى بنشر بعض مجموعات من هذه الوثائق مثل مجموعة دوان وسامارکو[2] ومجموعة الفرمانات السلطانية[3] وكذلك أشرف جلالته على وضع مؤلفين عن تاريخ مصر العام باللغة الفرنسية، واشترك في كتابتهما طائفة من العلماء الأجانب[4]؛ ولكن هذا لا يعني أن العمل قد انتهى ، فهناك عشرات الألوف من الوثائق لا تزال مجهولة عن نواح هامة في تاريخ مصر منذ العهد العثماني حتى أوائل عهد محمد علي الكبير في دار المحفوظات المصرية بالقلعة ، ويقابلها آلاف الوثائق عن هذا العهد محفوظة في دور الأرشيف الأوربية ، وأغلبيتها الساحقة لم تمسها يد إنسان بعد . فلا بد من حصر وجمع وتبويب هذه الوثائق في مصر وفي الخارج ؛ ولا بد من نشر بعض أجزاء منها نشراً علمياً . وما عمله الغرب بخصوص نشر مجموعات ضخمة من الوثائق التاريخية[1] ، وما عمله ذلك الرجل المقيم في ظلال الأرز ، والجدير بالإعجاب والتقدير ، من نشر بعض مجموعات من الوثائق عن تاريخ سوريا[2] كفيل بأن يجعلنا نجد ونسعى لنشر وثائقنا وأصولنا التاريخية

وبعد إتمام بعض هذه الأعمال التمهيدية يمكن أن يتقدم وأن ينشط البحث التاريخي في مصر بدرجة مرضية . والمؤلفات التي تكتب قبل أن تتم بالنسبة إليها هذه المراحل التمهيدية ، مع أنها جديرة بالتقدير ، لا يمكن أن تعتبر آخر كلمة في الموضوع الذي تتناوله . وأرى أنه ينبغي على الباحثين أن يتقبعوا أبحاثهم بنشر المهم من الوثائق التي اعتمدوا عليها في مجلد أو في مجلدات خاصة ، لأن هذا العمل لا يقل - إن لم يزد - في قيمته العلمية عن البحث التاريخي نفسه . وبعد ذلك تواجهنا ثغرات هائلة في مراحل التاريخ المصري ينبغي أن تدرس وتبحث على مدى الزمن . مثل تاريخ المدن المصرية ، وتاريخ الأزهر والمساجد ، وتاريخ الكنائس والأديرة ، وتاريخ التجارة في مصر ، وتاريخ مصر المالي والإداري في العهد العثماني ، وتاريخ علي بك الكبير ، وتاريخ الحركة العرابية ...

وهذه الأعمال الخطيرة لا يمكن أن تؤديها الجهود الفردية ، ولا يمكن أن يقوم بها جيل واحد من الباحثين . والسير في سبيل تحقيقها بالتدريج من الضروري جداً إنشاء معهد أو جمعية للدراسات التاريخية ، كما هو الحال في الغرب ، وتزود بالمال اللازم ، وتضم شتات المشتغلين بالبحث التاريخي في مصر ، وتنظم أعمالهم وتوحد جهودهم للانتاج العلمي الصحيح . ومن اللازم أيضاً أن نبدأ بإصدار مجلة للعلوم التاريخية ، فإنه توجد

(١) يقوم الدكتور مصطفى زيادة بنشر كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي منذ عدة سنوات . وقد أنجز منه الجزء الأول في ثلاثة أقسام ، وهذا هو النمط الذي ينبغي أن يكون عليه نشر أصول التاريخ في مصر

(٢) من مجموعات الوثائق التي نشرت عن تاريخ مصر الحديث نجد :

١ — Douin, G. et Mme. E. C. Fawtier-Jones : L'Angleterre et l'Egypte (1801-1803) Le Caire, 1929

٢ — Douin, G. : L'Egypte de 1802 à 1804. Le Caire, 1925 ... etc.

٣ — Sammarco, A. : Il Regno di Mohammed Ali nei documenti italiani inediti. V. I. : L'Egitto nell'anarchia (1801-1804) Cairo, 1930 — V. VIII : Genesi e primo svolgimento della Crisi egiziano-orientale del 1831-1833. Roma, 1931 ... etc.

(٣) مجموعة الفرمانات الشاهانية الصادرة إلى ولاة مصر وخديويها (١٥٩٧ — ١٩٠٤) . القاهرة ، ١٩٣٣ . ولها تلخيص وتعليق باللغة الفرنسية :

Haïm Nahoum : Recueil de Firmans Impériaux Ossomans adressés aux Valis et aux Khédives d'Egypte. (1597-1904) Le Caire, 1934

يقول الأستاذ L. Bonelli بمعهد الشرق في تابولي إنه كان قد درس ولخص هذه الفرمانات ، ولم يتم إصدار المجموعة لظروف خاصة . راجع مجلة : Oriente Moderno. Roma. gennais, 1935. pp. 42-44

(٤)
1 — Précis de l'Histoire d'Egypte. 4 vol. Le Caire, (1932 — 1935)

2 — Histoire de la Nation Egyptienne (Hanotaux). 7 vol. Paris, 1931-1940

(١) من مجموعات الوثائق في التاريخ الأوروبي نجد :

١ — Calender of state Papers. 300 vol. circa. London.

٢ — Collection de documents relatifs à l'Histoire de France. 300 vol. circa Paris, 1835...

٣ — Samuto, M. : I Diarii. 58 vol. Venezia, 1879...

(٢) مجموعات الوثائق التي نشرها الدكتور أسد رستم :

١ — الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا ؛ ٥ أجزاء بيروت ، ١٩٣٠ — ١٩٣٣

٢ — المحفوظات الملكية المصرية : بيان بوثائق الشام . المجلد الأول بيروت ، ١٩٤٠ .